

## القراءة البنوية والمرجعية اللسانية في النقد الادبي

أ. بلقاسم هواري

جامعة وهران

لقد أقرت البحوث والدراسات النقدية منذ ان ابرز **دي سوسير** الفروق الجوهرية في الدراسات اللغوية بين اللغة والكلام وبين التزامن والتعاقب أهمية اللسانيات وأثرها في تشكيل الخطاب النقدي المعاصر، كما تجاوز أيضا القواعد المألوفة في الممارسة النقدية النمطية المتمثلة في القراءة السياقية.

من هنا أكدت الدراسات النقدية على ضرورة الاحتكام إلى اللسانيات التي حققت منذ **دي سوسير** تطورا ملحوظا في مناهج البحث عن الظاهرة اللغوية وفي كشف وتحليل ابنية النصوص الأدبية المختلفة وفي الاقتراب من المبادئ العامة المولدة لشعريتها.

لقد انتهى هذا التحول الجذري في المعرفة الذي بدا بدراسة علم اللغة وتعداه إلى الحقل الانتروبولوجي إلى إحداث قطيعة معرفية في المجال النقدي الذي شهد تحولا جذريا في مبادئه ومنطلقاته المعرفية انطلاقا من اعتبار اللغة نظاما من العلامات ترتبط في ما بينها بعلاقات عضوية من التوافق والاختلاف ، واخذ الاهتمام بوصف وتشخيص الأنساق اللغوية بوصفها انساقا ثابتة انطلاقا من تأكيدات **دي سوسير** على أن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد انما هو اللغة في ذاتها ولذا **1** حيث يشدد **دي سوسير** على ( ان اللغة منظومة مكتفية بذاتها وبذلك فالمعنى لا تقرره مقاصد المتحدثين به ورغباتهم بل المنظومة اللغوية بحيث يغدو الأدب لدى البنويين (ضربا من التوسيع والتطبيق لخصائص لغوية معينة) **2** .

من هنا وجد النقد المعاصر سندا قويا في إحقاقات اللسانيات بمختلف فروعها التي طبعت كثيرا من الآراء النظرية في مجال النقد الأدبي بالتركيز على الظواهر الأكثر قابلية للتحديد والوصف الموضوعي كالأشكال والبنى والأساليب في الخطاب الشعري ن والكشف عن طبيعة العلامات التي يتكون منها هذا الخطاب مع استبعاد الواقع والمؤلف كمنقضي انطلاقا من عملية القراءة والكشف عن المنظومات الدلالية الفاعلة في الخطاب باعتماد العنصر

اللغوي هذا ما يؤكد عليه بارت في وصفه للغة الخطاب (هي وجود الأدب، عامله الخاص: الأدب اجمعه قائم في عملية الكتابة ، وليس في عملية التفكير أو التصوير أو الاخبار والشعور)3.

لقد أدت النظرة الجديدة للغة ومحاولة تحريرها من طوق التعقيد والوظائف التقليدية إلى هيمنة العلاقة الغوية والانموذج اللغوي علة مختلف حقول العلم والمعرفة كما أدت إلى تهميش الفاعلية الذاتية لصالح هيمنة النسق حيث اشار دي سوسير إلى أن اللغة أكثر نظم التعبير تعقيدا وبالتالي فهي خير ممثل لنظام العلامات4، من هنا اخذ النقاد بالدعوة إلى إعادة صياغة المقولات الفكرية والنقدية حيث ركزت معظم الاتجاهات النقدية على النص الأدبي ذاته بوصفه بنية لغوية .

إن هذه القيم المعطاة للمقاربة الداخلية تعيد إلى الأذهان طروحات النقد الجديد الأمريكي ، وأيضا الشكلايين الروس وكتابات رومان ياكوبسن غير أن البنية تختلف عن تلك الكتابات في بعض المسائل النقدية ، إذ إنها لا تشارك النقاد الجدد في تركيزهم على المعنى كما تراه البنية، إن العلاقة بين الأدب واللغة ليست في الأساس علاقة سلبية أو تعاضدية كما هو الحال في النظرية الشكلائية، فالعلاقة حسب المبادئ الأساسية للنظرية البنوية هي علاقة توازن أو علاقة نشاكل بحيث يبدو الأدب منظما عند كل مستوى على نحو مشابه للغة ، بحيث يمثل كشف النقاب عن هذا التشابه الجانب المركزي في النقد البنوي5.

من هنا عمدت معظم المقاربات البنوية في قراءتها إلى تقصي مظاهر تشكل النسق البنوي والكشف عن درجة الانتظام والتشاكل والتباين لمستويات البنية في الخطاب الشعري اعتمادا في ذلك على مفهوم الآنية التي تمثل قوام القراءة البنوية إذ تؤكد على ( أن جوهر الشيء هو وجوده ووجوده كامن في بنيته ونظامه)6، ان هذا التصور الذي يعود الى دي سوسير قد دفع الى تغيير طرائق الدراسة الأدبية وذلك من منطلق إن أهمية النص تكمن نسقه الذي ادركت البنوية أهميته ، وأخذت على عاتقها مهمة البحث عن مواصفاته داخل الخطاب الشعري.

و تأتي دعوة رولان بارت في التركيز على النسق في القراءة وذلك لان النص فضاء متعدد المعاني ، يتلاقى فيه عدد من المعاني الممكنة7 من هنا انصببت عملية القراءة على مركزية الخصائص اللغوية والتركيبية للأثر الأدبي حاملة بذلك فكرة البنية لمعنى الأثر المرتبطة بالحركة والاستقلال عن ما هو خارج حدود النص اعتمادا على لغة النص بوصفها/ النظام العلامي الوحيد الذي يمتلك القدرة على تفسير الأنظمة الدلالية الأخرى، وعلى تفسير نفسه

بنفسه ايضا/8. ، وهكذا يبدو التأكيد في القراءة على نظام اللغة في النص ، هذه الفكرة التي تعود جذورها في الواقع الى **الشكلانيين الروس** حيث أتخذو من اللسانيات مقياسا للفصل بين الرؤيا والرؤية في الأدب واعتمادهم على النسيج اللغوي في دراسة الأسلوب الأدبي انطلاقا من تعريفهم للأدب والذي تركز على خاصية التغريب وبحثا عن الأدبية في الخطاب ، فاللغة في الخطاب لدى **الشكلانيين** لا تدل على أي موضوع خارجي عنها ، ولا تحمل أي وزنا عاطفيا من جانب قائلها ، إنما ذات اكتفاء ذاتي كما يذهب **الشكلانيون** ذات قيمة ذاتية.

وفي سياق هذا التوجه النسقي المتزايد في دراسة النصوص يرى ايضا **تودوروف** الذي يكاد يقترب في بعض طروحاته مع منطلقات **رولان بارت** حيث يرى أن النص تنظيم خالص من الأشكال والعلامات 9، وبذلك أفضى هذا التصور إلى تعددية المقاربات التي تركز على استقلال المعنى في النص وتعدد مستوياته، وذلك ما ذهب إليه معظم النقاد البنيويين في مساهماتهم النقدية "بارت- تودوروف-شترافوس- دريدا- " إذ يسعى من خلال ذلك النقد بشكل عام إلى توضيح معنى الأثر الأدبي معنى يعد بقليل أو كثير كامن ومنسوب لمستويات مختلفة بحسب النقاد ، فالتحليل النصي ينكر وجود مدلول نهائي، والأثر الفني لا يتوقف ولا ينغلق ..... لان التحليل النصي متعدد 10، من هنا أسهمت هذه المقاربات على اختلافها في بلورة مفهوم القراءة النسقية للنص الأدبي.

لقد أكد بارت على أن العنصر المشكل لوجود الأدب وعالمه الخاص هو ببساطة اللغة ذاتها 11 ومن هنا احدث هذا التركيز على العنصر اللغوي وعيا معرفيا لنمط القراءة النقدية التي سعت إلى البحث عن الدلالة الممكنة للخطاب وتجاوز تلك المرتكزات المألوفة والنمطية للقراءة السياقية المتمثلة في قضية الواقع والمؤلف وعلاقتها بالدلالة والتركيز على العنصر اللغوي وأصبح كل ما يفعله الكاتب هو قراءة اللغة كما يذهب **تودوروف** باعتبار النص الشعري بنية وليس انعكاسا للواقع كما هو عند الشكلانية الروسية أو بوصفه -أي العمل الشعري- بنية وظيفية كما هو عند **حلقة براغ** بحيث لا يمكن فهم عناصرها إلا من خلال ارتباطاتها بالمجموع اذ تبدو البنية وببساطة بديل من مفهوم **دي سوسير** في العلاقات وفي دراسة الأدب تحل البنية محل المفهومين الشكلانيين عن الشكل والأداة ، ومن خلال ما سبق يبدو الترابط المعرفي في المنحى النقدي باعتبار النص حقائق علامائية وتحليله بوصفه تأليفا دلاليا.

هكذا تسعى القراءة النسقية إلى التأكيد على تعددية الدلالة في النص للتخلص من قصدية المؤلف، وهذا الغياب هو اشد وقعا لدى النظرية البنوية مما هو لدى النقاد-موت المؤلف- ولذلك فان النظرية التي ترى المعنى نتاجا لنظم لغوية لا تعطي دورا للمعاني الخاصة اة لمقاصد المبدعين وهذا ما يعنيه نزع مركزية الذات في النظرية البنوية حيث تتجلى صورة هذا المفهوم اكتمالا في كتابات **جاك لاكان** و**جاك دريدا** مابعد البنوية.

وفي ظل غياب قصدية المؤلف في القراءة البنوية أصبحت وظيفة الناقد متمثلة في البحث عن الدلالة الممكنة في الخطاب لان -الأدب في نظر بارت يقوم على تعدد المعاني- ، فالتخلص من قصدية المؤلف يفتح الطريق للتخلص من فكرة وجود معنى مركزي للنص لان العمل الأدبي في منظور النقد البنيوي - أزلي لا لأنه يفرض معنى وحيدا ، وإنما لأنه يوحي بمعان مختلفة<sup>12</sup>.

لقد أفضى منحى البنوية الشكلية في التركيز على تحليل البنية النصية بوصفها نسقا ثابتا انطلاقا من نزعتها الآنية التي ترى في اللغة مجرد نسق او نظام تؤدي وظيفتها كبنية ذات طبيعة رمزية لا تنطوي في ذاتها على أي وجود تاريخي إلى اعتراض البنوية التكوينية - **لوسيان غولدمان**-على مقولة النسق المغلق ، فالمسألة الجمالية الصحيحة لا تقتصر على معرفتنا لماهية الوسائل الفنية التي استعملها الفنان ، وإنما بخاصة عندما نطرح السؤال: لماذا هذه الوسائل ملائمة جدا للتعبير عن رؤية الفنان الخاصة للعالم.

مما سبق يؤكد **غولدمان** على أهمية العالم الخارجي في القراءة حيث يركز على العلاقة البنوية بين العمل الأدبي ورؤية العالم، كما يرى أن الحجر الذي تفرضه البنوية الشكلية على البنية يفقدها إمكانية تحليلها وفهمها بشكل معمق ، كما يؤكد **غولدمان** على أهمية الواقع والتاريخ في مواجهة إهماله لحساب سلطة النص عند البنوية الصورية وسلطة القارئ لدى **دريدا** إذ يرى أن العمل الأدبي تعبير محسوس عن الوعي الجماعي، كما تأتي محاولات **بول ريكور** في رفضه لتفسير اللغة على أساس انها نظام مغلق من العلاقات ساعيا في قراءة النص إلى التركيز على المعنى بدلا من الدلالة.

هكذا يبدو سعي بعض المقاربات البنوية لإقصاء البعد الخارجي عن النص للحفاظ على جوهره الجمالي ، وقد كشفت العديد من الدراسات النقدية العربية عن مثل هذا التوجه حيث اختلفت اتجاهاتهم في قراءة النص

الشعري مع التباين في قدرة الاستيعاب والفهم في المنطلقات والأسس والمفاهيم والمقولات المعرفية التي استندت إليها القراءات.

وما يلفت النظر في هذه القراءات هو التأثير البائن الذي لا يقف عند حدود المقاربات الألسنية الحديثة بل تعداه الى التراث العربي بوصفه حاملا لكل ما جاءت به تلك المقاربات الألسنية الحديثة إذ إن المتتبع لأصول نظرية النظم عند الجرجاني يدرك انه مبنية على أسس قوية متطورة قومها التمييز بين اللغة والكلام تمييزا يضاها في دقته واستحكام نتائجه ما وصل إليه علم اللسانيات الحديثة، والى ذلك ذهب كل من الغدامي وتمام حسن في أسبقية العرب في بعض ميادين البحث الدلالي وبخاصة ما يتعلق بفكرة المقام او سياق المقام، وفي ذلك تأكيد على تطور الدراسة الأدبية في التراث العربي.

وفي خضم هذا الجدل المعرفي حول مشروعية وأسبقية المقولات النقدية المعتمدة في الدراسات يتوزع نسيج القراءة للنص الشعري العربي، حيث تجلى ذلك في إسهامات العديد من النقاد العرب وبجتهم في تركيب النص وما تمثله البنية من انفتاح وانغلاق عبر الصياغة اللغوية والجمالية، وفي سياق هذا الاهتمام بشعرية النصوص تندرج مقاربات كمال ابو ديب، محمد مفتاح، يمني العيد، خالدة سعيد، عبد الله الغدامي، عبد السلام المسدي، سامي سويدان، عبد القادر الرباعي، عبد الملك مرتاض، يوسف الحناشي، بسام قطوس، ويسرية يحي المصري.

لقد حملت هذه القراءات تصورا معرفيا للنص الشعري تجاوز ما كان يتردد في المقاربات السياقية حول مفهوم القراءة، إذ تميزت في نظرتها بالاتساق وتنامي الرؤيا وتكامل البناء، وأحيانا بالمغالاة في الاحتفاء بالمعنى الوصفي في المعاينة النقدية امتثالا لسلطة النص وبنيته واتساقه، كما اقتضت في كثير من استنتاجاتها على استخراج الثنائيات الضدية وضبط الوحدات والوظائف الفرعية في التركيب الدلالي لبنية النص.

هوامش البحث:

- 1- دي سوسير، دراسة في الألسنية العامة تر/ محمد القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجيبة، الدار العربية للكتاب تونس 1985/ص/ 347.
- 2- ترفيطان تودوروف، فن شعر النثر اوكسفورد، 1977، ص/ 19.
- 3- رولان بارت، العلم مقابل الأدب في كتب مايكل لين البنيوية، 1970 لندن، ص/ 414.
- 4- دي سوسير، علم اللغة العام تر/ يوسف عزيز دار أفاق عربية، بغداد، 1985/ص/ 87.
- 5- ينظر النظرية الأدبية الحديثة: تر سمير مسعود منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق 1992/ص/ 164.
- 6- عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية المؤسسة الوطنية للكتاب 1986/ص/ 129.

- 7-العرب والفكر العالمي ع3/1983 رولان بارت. نظرية النص. تر/محمد خير البقاعي ص/94.
- 8-المرجع نفسه، ص/99.
- 10-ينظر نصوص الشكلايين الروس. نظرية المنهج الشكلي تر. إبراهيم الخطيب الشركة المغربية للناشرين ص/25.
- 11-مجلة العرب والفكر العالمي ع3. 1983.. رولان بارت. نظرية النص، ص/101.
- 12- رولان بارت، نقد وحقيقة، باريس، ص/42.